حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد أكتوبر – ديسمبر 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

مدينة الإسكندرية في رحلة العبدري
(ت بعد سنة 700هـ/ 1300م)

د. شريفة بنت محمد العتيبي*

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
sherifaotaibi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/10/27
تاريخ قبول البحث: 2024/10/29
تاريخ النشر: 2024/12/30

المستخلص:

تقدم كتب الرحلات مصدرًامهمًّا من المصادر التاريخية،فهي تنفرد بأهمية خاصة؛ لأن مصنفيها قد شهدوا ما سجّلوه مشاهدة عيان في أغلب الأحيان، فوصفوا البلاد ومعالمها، والعباد وعاداتهم طوال رحلتهم. ومن أشهرها الرحلات المغربية والأندلسية، ومنها رحلة العبدري، الذي يعد من أهم الرحالة المغاربة في القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

زار العبدريّ مدينة الإسكندرية، فهي تعدّ "مقصد المغاربة والمشارقة" والمحطة الرئيسة للحجاج والمسافرين؛ لذا يهدف البحث إلى تسليط الضوء على "مدينة الإسكندرية في رحلة العبدري" المسماة بـــ"الرحلة المغربية".

وباتباع المنهج الاستقرائي الوصفي يتناول البحث محورين رئيسين:

الأول: نبذة عن الرحالة العبدري ومكانته العلمية.

الثاني: تحليل رحلة العبدري لمدينة الإسكندرية.

- أهم النتائج والتوصيات التي خلصت إليها الدراسة.

النتائج:

1-تبين من خلال البحث أن المصادر لم تسعف بمعرفةنشأة العبدريّ، أو تكوينه العلميّ والثقافيّ، ولم يذكر هو في رحلته شيئًا عن مرحلة تلقيه العلم الأولى.

2- غفل العبدريّ عن ذكر كثير من الجوانب العمرانية الخاصة بالناحية الدينية والعلمية، كالمساجد والمدارس.

3-سلّطت رحلة العبدريّ الضوء على مجموعة من علماء الإسكندرية، وكانت

عملًا أدبيًّا بامتياز لما تحتويه من رواية وتراجم للعلماء والأدباء، وما جمعه من أشعار وقصائد ومساجلات.

4- ألقت الدراسة على جانب من شخصية العبدريّ وحدّة طباعه، وتناوله بكثيرمن النقد ما يرى ويسمع، كرأيه المتشدّد في أخلاق أهل الإسكندرية.

ب- **التوصيات:**

- ترى الباحثة أن كتب الرحلات، على الرغم من أهميتها لم تنل ما تستحقّ من الدراسة والتدقيق، وأن التركيز كان على عدد من الرحالة دون غيرهم، كابن جبير، وابن بطوطة.
- توصي الباحثة بالاهتمام بدراسة الرحلات كمصدر مهم وأساسيّ من مصادر الباحث لاستخلاص معلوماتها القيمة

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه وعبده، محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه وسار على نهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد عرف العرب الرحلات منذ القدمطلبًا للرزق والتجارة، أو حبًّا للاستكشاف والمغامرة، وبعد مجيء الإسلام وانتشارهأصبح هدف هذه الرحلات الأول: الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسولﷺ،ثم طلب العلم. وكان خير باعث على طلب العلم حديث الرسولﷺ، ومنها حديثه الصحيح: "من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله به طريقًا إلى الجنة".

وكان لمدينة الإسكندرية نصيب وافر من هذه الرحلات؛ لأنها كانت من المحطات المهمّة في طريق قوافل الحجّ والتجارة،و كان لموقعها المهمّ على ساحل البحر المتوسط دور بارز جعلها ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببلاد المغرب والأندلس؛ فيفد إليها الحجاج والرحالة من المغرب والأندلس.

وفي عصر الدولة المملوكية ارتفعت مكانة الإسكندرية، حتى أصبحت ميناء مصر الأول، والمدينة الثانية بعد القاهرة العاصمة، وتعدّ مقصد "المغاربة والمشارقة"،والمحطة الرئيسة للحجاج والمسافرين.

ومن أهم الرحالة المغاربة في القرن السابع الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ الرحالةُالعبدريُّ، الذي ألّف رحلته المسمّاة بـــ"الرحلة المغربية"[1]؛ لذا وقع اختيار الباحثة على موضوع "مدينة الإسكندرية في رحلة العبدري".

وتتجلّى أهمية البحث في أن "رحلة العبدريّ" من الرحلات التي لم تنلْ حظها من الشهرة التي نالتها غيرها من الرحل،بالرغم من أهميتها.

وباتّباع المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ سيدور البحث حول محورين رئيسين:

الأول: نبذة بسيطة عن الرحالة العبدريّ.

الثاني: رحلة العبدريّ إلى مدينة الإسكندرية.

ثم الخاتمة التي تضمنت أهمّ النتائج والتوصيات.

التمهيد:

تعدّ الرحلات من أهمّ المصادر التاريخية والجغرافية والاجتماعية التي تزوّد الباحث بمعلومات مهمة؛ لأنها كتبت من خلال مشاهدة العيان، وعادةًما تزوّدنا كتب الرحلات بمعلومات قد لا نجدها في المصادر الأخرى، خاصةً ما يخصّ عادات المجتمع وتقاليده، التي قد تغفل عنها المصادر الأخرى.

والرحلة لغةً بمعنى الارتحال، وهو الانتقال من مكان إلى مكان لغرضٍ ما، وهي مقارنة للسفر[2].

وقد عرّفها بعضهم بأنها: "نوع من الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث،وما صادفه من أشياء في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان، أو يملي أو يحدث مشاهداته ومشاعره تجاه ما سمع وما رأى، فيما يسطّر ذلك شخص آخر"[3].

دوافع الرحلات[4]:

يمكن أن نلخّص دوافع الرحلات عامّة فيما يلي:

1- الرحلة الحجازية حيث الأماكن المقدسة، وهي المرتبة الأولى بين الرحلات.

2- الرحلة في طلب العلم.

وكثيرًا ما كان الغرضان يجتمعان معًا، فتكون الرحلة جامعة للأمرين معًا: الحجّ وطلب العلم، كرحلة العبدريّ موضع البحث.

3- الرحلة السياحية التي كان الهدف منها الاطّلاع على غرائب البلاد.

وقد اختصّ الأندلسيون والمغاربة بكتب الرحلات أكثر من غيرهم، ويعود ذلك إلى أن المشرق هو مركز أداء فريضة الحج، ولما يتضمنه من مقدسات إسلامية، إضافة إلى رغبة الرحالة المغاربة في زيارة الأماكن المقدسة، وكذلك لوجود مراكز العلم الأولى في مكة والمدينة، وغيرها كثير مما كانت محطّ أنظار طلبة العلم، كالقاهرة، ودمشق، وبغداد[5].

المحور الأول: حياة العبدريّ:

صاحب الرحلة هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدريّ الحيحيّ، نسبة إلى حاحة[6]، وينتهي نسبه إلى عبدالدار بن قصي بن كلاب القرشي، وإليهينسب العبدريّ. وهو مجهول الولادة والوفاة[7].

والعبدري فقيه ولغويّ وأديب،وهو من أهمّ الرحالة المغاربة في القرن السابع الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ، وقد دوّن مشاهداته في رحلته المعروفة بـــــ"رحلة العبدري"[8].

اختلفت الآراء في أصله،فمنهم من يرى أنهيعود إلى الأندلس، ثم استقرّ في حاحة،ومنهم من يرى أن أسرة العبدريّ كانت في بلنسية بالأندلس، ثم هاجرت إلى المغرب[9]. وعلى الرغم من ذلك يرجّح أنه مغربيّ. ومما يؤيّد ذلك أن العبدريَّ نفسه لم يذكر الأندلس في رحلته[10].

ولا تمدّنا المصادر عن خلفيته العلمية شيئًا، وليس أمام الباحث إلا الرجوع إلى ما دوّنه العبدريُّ في رحلته، التي يُستشفّ منها أنه كان يمتلك عددًا من المزايا والعلوم المختلفة؛ فقد كان متديّنًاحافظًا لكتاب الله،عالمًا بالحديث والفقه، متضلّعًا باللغة العربية، وآدابهاوشعرها، بدليل كثرة أشعارهوقصائدهفي رحلته.

بدأ رحلته من حاحة في الخامس والعشرين من ذي القعدة 688هـــ/ 1289م، فمرّ على منطقة سوس،ثم تلمسان،ثم وصل إلى مدينة تونس، ومنها توجه إلى القيروان،ثم إلى قابس، ثم إلى طرابلس، ثم إلى برقة،ثم إلى الإسكندرية،ثم إلى القاهرة، ومنها قصد مكة المكرمة، فوصل إلى المحصّب يوم الاثنين سابع ذي الحجة 689هـــ/ 1290م، ثم رحل من الغد وهو يوم التروية إلى منى، وفي هذا اليوم دخل البلد الأمين، مكة المكرمة.

وبعد قضائه مناسك الحجّ توجّه إلى المدينة المنورة، ثم زار مدينة الخليل بفلسطين،ومنها توجّه إلى بيت المقدس، ومنه إلى القاهرة. وهنا حانت عودته إلى بلاده عن طريق تونس والجزائر، ووصل إلى مدينة تازة في أواخر رمضان عام 690هـــ/1291م ، وعيّد بمدينة فاس، ثم رحل منها إلى أن وصل إلى مدينة آزمور، ثم إلى مدينة آسفي[11].

وضّح منهجه في التدوين من خلال رحلته، حين قال: "وبعد، فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسويده، مما سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القُطّان، حسبما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان..."[12].

وتمتاز هذه الرحلة بأن مؤلفها رجل قوي الشخصية، حادّ الطبع، كثير النقد، لا يجامل في المواجهة، حريص على المعرفة، متتبع لمجالس العلماء، لا يقتصر على الأخذ عنهم؛ لأنه كان يريد أن يأخذ ويعطي ويتعلم ويُعلِّم.

وكان يعتزّ بأدبه وعلمه بلا مباهاة بما يعرف، ولكن أملًا في ألّا تضيع توجيهاته وتأويلاته التي كان يتوصّل إليها باجتهاده وحذقه[13].

المحور الثاني:رحلة العبدريّ إلى مدينة الإسكندرية:

- **الإسكندرية عمرانيًا:**

وصف العبدريّ الإسكندرية بأنها: "مدينة الحصانة والوثاقة، وبلدالإشراق اللّامع والطّلاقة، وطلاوة المنظر"[14]، وقد بدأ حديثه بالثناء والتمجيد على هذه المدينة العريقة، ثم استطرد في وصفه فقال: "مدينة فسيحة الميدان، صحيحة الأركان، مليحة البنيان، تسفر عن محيّا جميل المنظر"[15].

ومن هذا الوصف نستشفّ مدى جمال مباني الإسكندرية، وحسن تنظيمها وعمرانها، وإن كنّا لا نجد في الرحلة وصفًا شاملًا لذلك العمران،ثم بدأ يفصّل أبرز ما استحسنه من تلك المباني:

أ- **<u>الأبواب:</u>**

وصف الأبواب من جملة الإبداعات والغرائب التي رآها العبدريّ في مباني الإسكندرية، ومما يلفت الانتباه هو الدقة المتناهية في وصفه، فقد وصف كلَّ مايتعلّق بالأبواب: عضائدها، وعتبها،ومصاريعها، وطولها الضخم، فقال:" ومن جملة إبداعها وإغرابها ما رأيت من إتقان أبوابها. وذلك أنّ عضائدها وعتبها مع إفراط طول الأبواب كلّها من حجارة منحوتة، يتعجّب من حسنها وإتقانها، وكلّ عضادة منها حجر واحد، وكذلك كلّ عتبة وأسكفة، ولا أعجب من وضعها هنالك مع إفراط عِظمها، ولم يغيّر طول الزّمان شيئًا من ذلك، ولا أثّر فيه، بل بقي بجدّته ورونقه. وأمّا مصاريعها فهي غاية في الإحكام، ملبّسة بالحديد ظهرًا وبطنًا بأدقّ ما يكون من الصّنعة وأحسنه وأتقنه"[16].

ولم يفته وصف مصاريع الأبواب بأنها محكمة مصنوعة من الحديد من الداخل والخارج بطريقة متقنة الصنع، ثم ختم وصفه بالتأكيد بأن طول الزمن لم يؤثر في جمال تلك الأبواب الضخمة وجودتها، بل بقيت كما وصفها كأنها جديدة[17].

وعلى الرغم من إعجابه الشديد بتلك الأبواب إلا أنه لم يتحدّث عن أسماء تلك الأبواب أو مواقعها، وهذا مما يؤسف له[18].

ب-**<u>عمود السواري:</u>**

عامود السواري من أشهر معالم الإسكندرية، ويعتبر نصبًا تذكاريًّا رومانيًّا،فقد كان موضع إعجاب العبدريّ، ومن أغرب ما رأى من المعالم فقال عنه: "ومن أغرب ما رأيت بها عمود من رخام بظاهرها يعرف بعمود السّواري. وهو حجر واحد مستدير عال جدّا على قدر الصّومعة المرتفعة، وهو يبدو من بعيد بارزًا في غابة من النّخيل مرتفعًا عنها، وقد أقيم على حجارة منحوتة مربّعة على قدر الدّكاكين العظام، علوّها أزيد من قامتين، ولا يعلم كيف أقيم عليها، ولا كيف ثبّت هناك مع الرّياح والعواصف، وهو ممّا لا يمكن تحريكه البتّة، فضلًا عن إقامته هنالك"[19].

كان لهذا التمثال لضخامته وارتفاعه موضع إعجاب لكل من زار الإسكندرية من الرحالة ، ومن خلال وصف العبدري للعامود يتضح لنا مدى الدقة التي تميز بها في مشاهدته، علما أنه لم يتطرق إلى تاريخ العمود وبداية بنائه[20]، إلا أنه أشار إلى أمرين مهمّين:

- قوله: "ولا يعلم كيف أقيم". وهذا يدلّ على دقة نحته، وعلى مدى ارتفاع هذا المعلم، حتى أصبح مثار استغراب

للناظر في كيفيه بنائه.

– قوله: "ولا كيف ثبت هناك مع الرّياح والعواصف".وهي ملاحظة في مكانها، فلو رجعنا إلى بداية بنائه من العصر الروماني وبقائه حتى الآن لتساءلنا في أنفسنا: كيف ثبت هذا المعلم على الرغم من الظروف الجغرافية حتى الآن؟!

ج– منار الإسكندرية:

كان منار الإسكندرية من المعالم الحضارية البارزة التي استرعت انتباه الرحالة، وعدُّوه من عجائب الدنيا،وسطروا فيه الكتب، فيقول العبدريّ في هذا الصدد: "وأمّا المنار فقد كتب النّاس فيه وسطّروا ما فيه الكفاية، وقد دخلته وتأملّته وما وصلت إلى أعلاه إلّا بعد جهد، ولا يظهر له من خارج فرط علوّ. وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال، وعلى تلّ مرتفع بشمال البلد، وقد أحاط به البحر شرقًا وغربًا حتّى تآكل حجره من النّاحيتين، فدُعّم منها ببناء وثيق اتّصل إلى أعلاه، وزيد دعمًا بدكاكين منّسعة وثيقة، وضع أساسها في البحر، ورفعت عنه نحو ثلاث قامات"[21].

وضّح في بداية الأمر بأنه لن يتطرّق لتاريخ بنائه، لأنَّ هذا المعلم من الشهرة ما يغني عن تكرار ما ذكره أسلافه. وعلى الرغم من ذلك حرص على دخول المنار بنفسه، ليتعرّف على خفاياه، فقدّم وصفًا دقيقًا لما شاهده عيانًا متأملًا ومدققًا.فوضّح أن الدخول إليه لم يكن سهلًا بسبب ارتفاعه، وبيّن أن أحجاره التي يحيط بها البحر بدأت تتآكل، وهو ما جعل القائمين عليه يدعمونها ببناء آخر وبدكاكين، وهذا يدلّ على دقة ملاحظة العبدريّ هنا.

ويؤكّد ذلك ما ذكره ابن بطوطة الذي بدأ رحلته عام(725هـ/1324م) في هذا الصدد: "قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدّمًا"[22]،وهذا يدلّ أن المنار كان يحتاج من القائمين إلى الاهتمام به وترميمه.

ومن خلال تتبّع الأحداث فإن الإسكندرية تعرضت إلى زلزال عنيف في سنة 702هـ/ 1301م، وكان من آثاره تأثر المنارة التي لم تصمد أمام الزلزالبدليل ملاحظة ابن بطوطة في أثناء عودته سنة (750هـ/1349م) عن المنار، فقال: "وقد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه"[23].

ثم استطردالعبدريّي وصفه،فوصف باب المنارة المرتفع عن الأرض، وبأن سبيل الدخول إلى المنار من خلال رصّ ألواح خشبية تتّصل من البنيان الذي بُنِيَ بمحاذاته حتى باب المنارة، ثم وصف ما يحتوي عليه المنار من المساكن، كمكان مخصّص للحراسة، وعدّة بيوت، ومحراب للصلاة، وبأن لا سبيل لدخول المنار إلا عن طريق البحر[24].

- **سكان الإسكندرية:**

لا يختلف رأي العبدريّ عن وصف الإسكندرية ومافيها من عجائب البنيان كحدّ وصفه، ولكن كان له رأي آخر في أهل البلد، فقد وصفهم بأن: "أكثر أهلها رعاع، ضرر بلا انتفاع، مع سوء أخلاق، ومرارة مذاق، وقلوب ربّاها الضّغن تربية الأولاد، وجفاها الخير والصّلاح لما عمرها من الشّرّ والفساد، الخيّر فيهم فعل لا يتصرّف"[25].

وما يثير التساؤل هنا: لماذا هذا النقد الشديد الذي يحمل بين طياته تحاملًا كبيرًا من قبل العبدريّ؟!وكيف له أن يحكم على أهل البلد في مدة زيارته القصيرة؟! فلعلنا هنا نبحث عن إجابة لهذه التساؤلات من خلال ماكتبه العبدريّ بنفسه. ولنعدْ إلى بداية دخول العبدريّ ثغرَ الإسكندرية، والمعاملة التي استقبل بها، فقد ذكر شدّة ما يلقاه القادمون إلى ثغر

الإسكندرية من قسوة مفتشي المكوس.

كتب العبدريّ في هذا الصدد: "ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج، ويجرّعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي. وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة، فمدّوا في الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعًا من المظالم، وأذاقوهم ألوانًا من الهوان، ثم استخلفوهم وراء ذلك كله، وما رأيت هذه العادة الذميمة، والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد، ولا رأيت في الناس أقسى قلوبًا، ولا أقل حياءً ومروءةً، ولا أكثر إعراضًا عن الله، سبحانه، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد"[26].

يتضح من خلال ما كتبه العبدريّ مدى استيائه وغضبه الشديد من هذه المعاملة لحجاج بيت الله الحرام، والتي لم تفرّق بين الرجال والنساء، فكان هذا الانطباع الأول الذي بقي أثره في نفسه، ويبدو أنه حاول أن يجد لهم عذرًا بأن المعاملة من قبلهم كان أمرًا مستحدَثًا،ا إلا أنه انصدم بأن هذه المعاملة هو دأبهم وعادة عندهم من زمن بعيد، منذ أيام الدولة الأيوبية.

أكمل العبدريّ حديثه وهو مايزال غاضبًا من أهل البلد فقال: "وكنت إذ رأيت فعل المذكورين ظننت أنّ ذلك أمر أحدثوه، حتّى حدّثني نور الدّين، أبو عبدالله بن [زين] الدّين أبي الحسن يحيى بن الشّيخ وجيه الدّين أبي علي منصور بن عبدالعزيز ابن حباسة الإسكندريّ، بمدرسة جدّه المذكور حكاية اقتضت أنّ لهم في هذه الفضائح سلفًا غير صالح. ... ورد الإسكندريّة في ركب عظيم من المغاربة برسم الحجّ، فأمر النّاظر على البلد بمدّ اليد فيهم للتّفتيش، والبحث عمّا بأيديهم، ففتّش الرّجال والنّساء، وهتكت حرمة الحرم، ولم يكن فيهم إبقاء على أحد. قال: «فلما جاءتني النّوبة، وكانت معي حرم، ذكرّتهم بالله، ووعظتهم فلم يعرجوا على قولي، ولا التفتوا إلى كلامي، وفتّشوني كما فتّشوا غيري". فاستخرت الله تعالى، ونظمت هذه القصيدة ناصحًا لأمير المسلمين صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، ومذكّرًا له بالله في حقوق المسلمين ومادحًا له"[27]. هنا تأصّل في نفسه بأن بلدًا هكذا يعامل الوافدين لا خير فيه!

ويبدو أن الأوضاع زادت سوءًا على المغاربة، بدليل إشارة ذكرها ابن حجر العسقلانيّ أن المغاربة اشتكوا للسلطان فرج بن برقوقبأنهم "يؤخَذ منهم ثلث أموالهم في المكس، ويؤخذ من الفرنج العشر، فغضب من ذلك، وأمر ألّا يؤخَذ من المغاربة إلا العشر"[28].

الأمر الثاني الذي ربما يكون سببًا في تحامل العبدريّ أيضًا ما ذكره عن معاملتهم للمسافرين فقال: "والغريب بينهم نكرة لا تتعرّف، إن رأوه زادوا الوجوه جهامة. تمالؤوا على كلّ وصف شانَ ومازانَ، وتواطؤوا على تطفيف المكيال والميزان. فإن عاملهم غريب، لم يلقَ منهم إلّا ما يريب، يتّخذونه هدفًا ولكلّ منّهم فيه سهم مصيب، حتّى يخرج من ماله بغير نصيب. لا ترجى منهم فيئة إنابة، ولا تُلفى فيهم فئة رأفة ولا عصابة، ولا ينفع الغريب في معاملتهم أن يقول: لا خلابة"[29].

وهنا تحدّث العبدريّ عن معاناة الوافدين في البلد من الاستغلال الماديّ، خاصة في المعاملات التجارية، وأشار إلى رفع الأسعار عليهم لاستغلال جهلهم بها، ومع الأسف تصادف مثل هذه الممارسات كثيرًا من الوافدين والسياح، ولكن هذا لا يعطي الحقّ لأحد بذمّ أهل البلد ووصفهم بتلك الأوصاف الشنيعة لمجرد أنه وجد متاعب من جباة المكوس والضرائب، أو من جشع بعض التجار.

الحياة العلمية في الإسكندرية في رحلة العبدريّ:

نشأت في الإسكندرية أسر علمية شاركت في حركة الإثراء الفكري الذي شهدته في العصر المملوكيّ، سواء عن طريق التدريس، أو التأليف،بإسهام أفرادها آباءَ وأبناءً وأحفادًا في هذا المضمار[30].

واشتهرت رحلة العبدريّبما احتوت عليه من تراجم لعلماء وأدباء لقيهم في أثناء رحلته،فقددوّن ما أخذ عن كل واحد منهم من فقه، وحديث، وأدب ونحوه، وعلى الرغم من موقفه من أهل الإسكندرية إلا أنه لم يبخس علماءها ووصفهم بأنهم: "من أهل الفضل علمًا وديناً، وددت له ملكت في ذكر فضلهم قلبًا حافظًا، ولسانًا مبينًا"[31].

منهم:أبو الحسن بن المنير (ت٦٩١هـ/ 1291م): لقيه العبدريّ في الإسكندرية، وأثنى عليه فقال: "ما رأيت أحدًا اجتمع له من حسن الحفظ وذكاء الفهم ما اجتمع له"، وقرأ عليه بعض شرحه على البخاريّ، وقرأ عليه بعض الجزء الثاني من المختصر لابن الحاجب في الفقه على مذهب الإمام مالك، وفي أثناء عودة العبدريّ من رحلته نزل ضيفًا عليه في مدرسته التي عرفت بمدرسة الفقيه ابن المنير[32].

والتقى بالعالم تاج الدين الغرافي[33] (ت٧٠٤ هـ/ 1304م):تعدّ أسرة الغرافي من الأسر الشهيرة بروايتها للحديث، والفقه الشافعي داخل الإسكندرية[34]، وكان يلقب بـ"شرف المحدثين"، وتولّى التدريس في أشهر مدارسها، كدار الحديث النبيهية، ودار الحديث البزارية[35].قرأ عليه العبدريّثلاثيات البخاري، "وسمع منه صحيح البخاري"، وسمع منه بعض الشعر، وقرأ عليه بعض كتاب "شرح الو صيد في شرح القصيد" للسخاوي. وقيّد اسم العبدريّ ونسبه في برنامج شيوخه؛وهذا ما يبيّن مدى علم العبدريّ حتى جعله من قائمة شيوخه[36].

ووضّح العبدريّ أنه اجتمع بمجموعة كبيرة من العلماء، وأجازوا له، ولكنه لم يشرْ إلى أسمائهم بناء على رغبتهم، فقال: "منهم من استكتمني اسمَه، وعاقدني على أن لا أذكر رسمه، عملًا على منهج زهده وحجة تقواه"[37].

وحفلت رحلته بالعديد من المناظرات العلمية والمساجلات الشعرية، والمناقشات الفقهية، منها على سبيل المثال: المساجلة العلمية الشعرية بينه وبين زين الدين المنير[38].

والتقى أيضًا بالشيخ محيي الدين الماذوني (ت٦٩٣هـ/ 1293م)، أستاذ اللغة العربية في وقته،مثلما وصفه العبدريّ، وسمع عليه كثيرًا من شعره، وجرت بينهم مساجلات شعرية ذكرها في رحلته[39].

ويصوّر العبدريّ مدى العلاقة القوية التي توطدت بينه وعلماء الإسكندرية، حتى إن بعضهم قد أظهر حزنه على فراقه، وهذا من خلال ما ذكره عن موقف العلامة الغرافي فقال: "ولما عزمت على السفر قال لي: إني بتّ البارحة مهمومًا. قلت لماذا؟ قال: لأجل فراقك وقيد اسمي ونسبي في برنامج شيوخه، وقيّد عني أبياتًا من شعري وكتب بخطّه

جميع القصيدة التي كتبت إلى ولدي محمد – وفقه الله – من القيروان، وبالغ في استحسانها، ...، وقال لي: أستودعتك الله دينَك وأمانتَك وخواتم عملك ثلاث مرات، ثم قال: ردّ على مثلها، ففعلت، وأنشدني مودّعًا باكيًا في انصرافي عنه"[40].

ومما يؤسَف له أن العبدريَّ لم يتتبّع أبرز دور العلم بها، كالمساجد ودور الحديث والكتاتيب[41] والمدارس ونحو ذلك؛ وربما يعود ذلك إلى عدم مكوثه فيها فترة كافية.ما عدا إشارة عابرة عن مقابر الإسكندريّة وما فيها: "من المزارات وقبور العلماء والصّالحين ما لا يعدّ كثرةً"[42].

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث تجمل الباحثة أهمّ النتائج التي توصّلت إليها، والتوصيات التي توصي بها:

أ- النتائج:

1- يتبين من خلال البحث أن المصادر لم تسعف بمعرفةنشأة العبدريّ، أو تكوينه العلميّ والثقافيّ، ولم يذكر هو في رحلته شيئًا عن مرحلة تلقيه العلم الأولى.

2- غفل العبدريّعن ذكر كثير من الجوانب العمرانية الخاصة بالناحية الدينية والعلمية، كالمساجد والمدارس.

3- سلّطت رحلة العبدريّ الضوء على مجموعة من علماء الإسكندرية، وكانت عملًا أدبيًّا بامتياز لما تحتويه من رواية وتراجم للعلماء والأدباء، وما جمعه من أشعار وقصائد ومساجلات.

4- ألقت الدراسة على جانب من شخصية العبدريّ وحدّة طباعه، وتناوله بكثير من النقد ما يرى ويسمع،كرأيه المتشدّد في أخلاق أهل الإسكندرية.

ب- التوصيات:

- ترى الباحثة أن كتب الرحلات، على الرغم من أهميتها لم تنل ما تستحقّ من الدراسة والتدقيق، وأن التركيز كان على عدد من الرحالة دون غيرهم، كابن جبير، وابن بطوطة.
- توصي الباحثة بالاهتمام بدراسة الرحلات كمصدر مهم وأساسيّ من مصادر الباحث لاستخلاص معلوماتها القيمة؛ فهي كنز لا ينضب.
- تؤكّدالباحثةأن كتب الرحلات ليست مصدرًا خاصًّا لأهل التاريخ وحدهم؛ فهي تحوي شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة للتخصصات كافة.

المـــلاحق

1- خط سير رحلة العبدري[43]

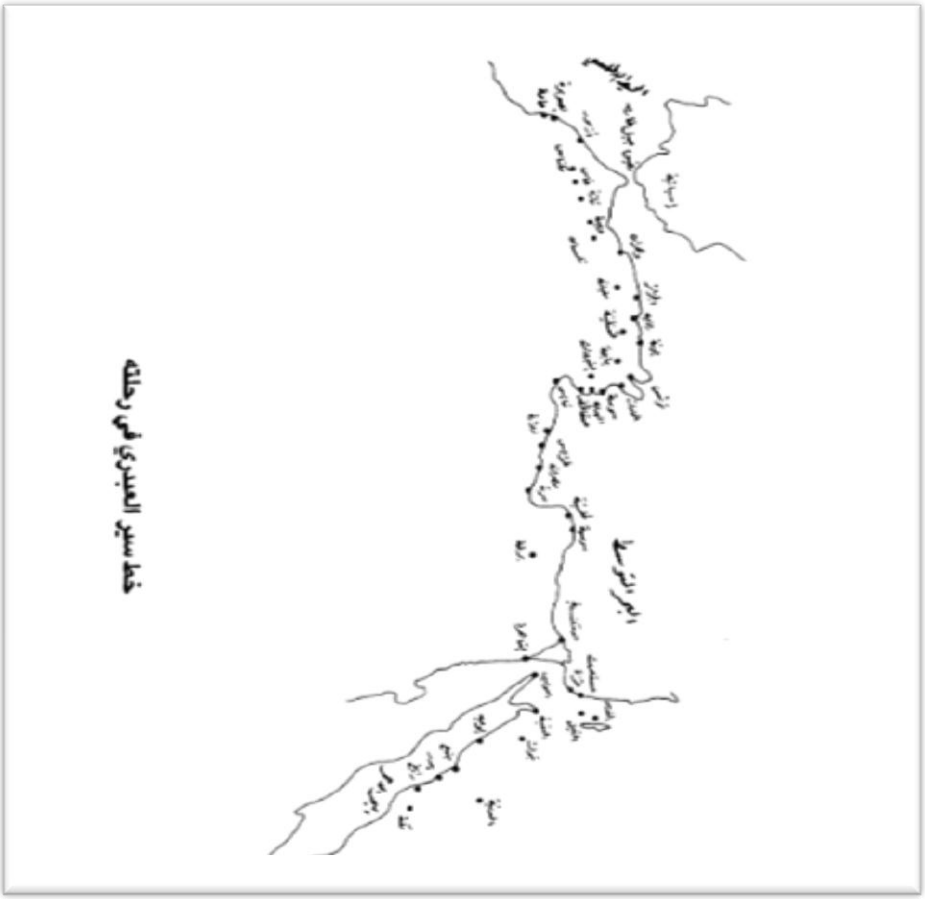

2- عامود السواري في الإسكندرية[44]

شكل ٣ :يقع بقايا الهيكل الكبير القائمة داخل الحديقة الأثرية اليوم

شكل٤ صور المنطقة الأثرية حاليا توضح عامود السواري،نتيجة الفحص البصري

شكل٥: صورة للموقع تظهر صورة قديمة وجديدة لعمود السواري (بومبي)

3- عامود منار الإسكندرية[45]

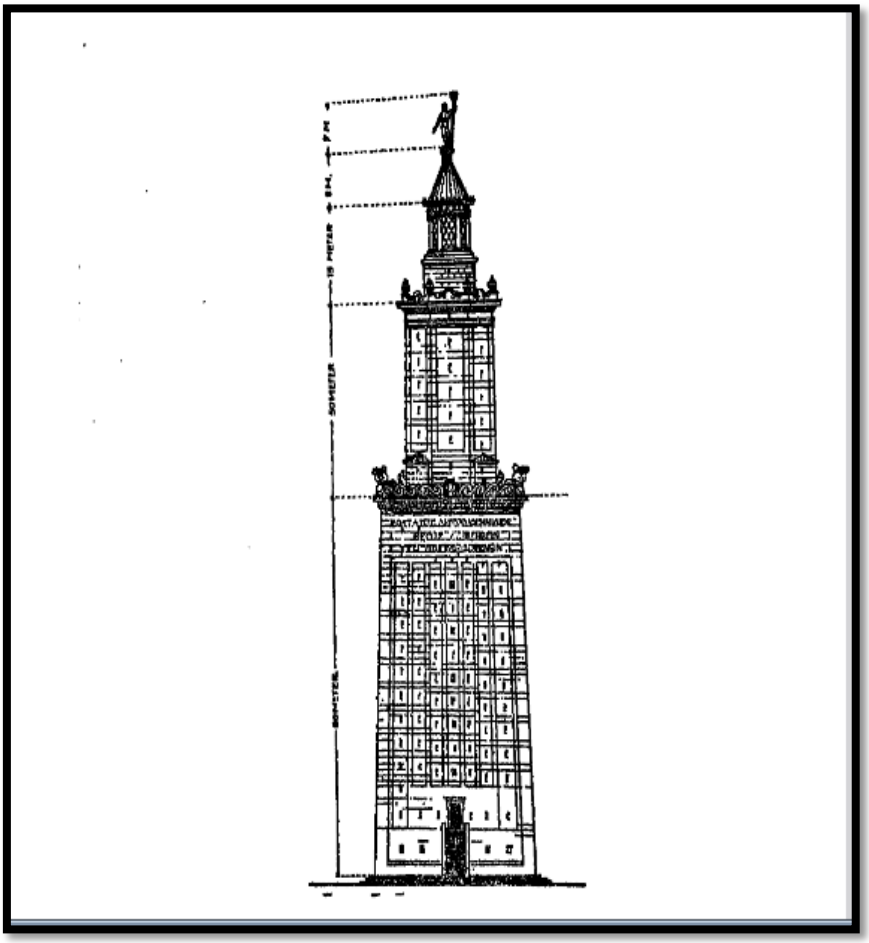

Abstract

Alexandria city in Abdari's journey (died after 700 AH/1300 AD)

By Sherifa Bnt Mohamed Staibi

Travel books serve as significant historical resources, particularly because their authors often recount firsthand experiences, vividly describing landscapes, landmarks, people, and customs encountered during their journeys. Among the most notable of these are the Moroccan and Andalusian journeys, including the journey of Al-Abdari, who is regarded as one of the most important Moroccan travelers of the 7th century AH (12th century AD).

Al-Abdari visited the city of Alexandria, considered "the destination of Moroccans and Levantines" and a major hub for pilgrims and travelers. Therefore, this research aims to illuminate "the city of Alexandria in Al-Abdari'sjourney," referred to as "the Moroccan journey."

By employing a descriptive inductive approach, the research addresses two main aspects:

1- Overview of the Traveler Al-Abdari: This section provides insights into Al-Abdari's background and scholarly status.

2- Analysis of Al-Abdari's Journey: This part examines his experiences and observations in the city of Alexandria.

- Results:

1- The research indicates that available sources do not provide information about Al-Abdari's upbringing or his scholarly and cultural background, nor does he mention anything about the early stages of his education in his journey.

2-Al-Abdari overlooked many aspects of urban planning related to religious and educational institutions, such as mosques and schools.

3- His journey illuminates a group of Alexandrian scholars and serves as a remarkable literary work, containing narratives and biographies of scholars and writers, as well as poems, verses, and debates he collected.

4-The study explores Al-Abdari's unique personality and critical perspective, including his strict opinions

الهوامش

(1) العبدري، أبو عبدالله (ت688هـ/ 1289م)، **رحلة العبدريّ**، تحقيق:علي إبراهيم الكردي، (دمشق، دار سعدين، ط2، 1426هـ/ 2005م).

(2) الفيومي، أحمد بن محمد (ت نحو 770هـ/ 1338م)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت، المكتبة العلمية)، 1/ 223.

(3) القاسمي، محمد رضي الرحمان، "الرحلة وأدبها في اللغة العربية"، **(مجلة الداعي**، أبريل – يونيو، 2013م، ع6–7، س37).

(4) كردي، علي إبراهيم، **أدب الرحل في المغرب والأندلس**، (دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013م)، ص12–14.

(5) خربوطلي، شكران وآخرون، "أدب الرحلة في العصر المملوكي (ابن بطوطة والبلوي أنموذجًا)"، **(مجلة بحوث جامعة حلب**، حلب، ع101، 2015م)، ص139– 154.

(6) حاحة: بلدة بين مراكش وسوس قرب مدينة الصويرة على شاطئ المحيط الأطلسي. انظر: الزبيدي، محمد مرتضى (1205هـ/ 1790م)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 1402هـ/ 2001م)، ص358.

(7) أقدم من ترجم له – حسب ما ذكره كردي – هو ابن القاضي أحمد المكناسي (ت1025هـ) في كتابه **جذوة الاقتباس في ذكر من حل بالأعلام مدينة فاس**، (الرباط، دار المنصورة، 1973م)، ص286–288؛ كردي، **أدب الرحل**، ص81.

(8) يختلف الباحثون حول تسمية الرحلة، فهناك من يمسيها بـ"رحلة العبدري"، وهناك من يسميها بـ"الرحلة المغربية". غير أن الاسم الأول هو القريب إلى الصواب، لأن الرحلات المغربية والأندلسية تسمّت بأسماء أصحابها، مثل: رحلة ابن بطوطة، وابن جبير، وابن رُشَيد. انظر: كردي، **أدب الرحل**، ص85.

(9) اختلفت الآراء حول أصل العبدريّ يعود لعدم وجود ترجمة له في المصادر والطبقات، ما عدا ترجمته في كتاب جذوة الاقتباس، وهي مختصرة لا تفي بالغرض، ولا بدّ من التنبيه إلى أن بعض المراجع قد التبس بها الأمر حول ترجمته، منهم الزركلي الذي ترجم لشخصيتين كليهما باسم العبدري. انظر: الزركلي، خير الدين محمود، (بيروت، دار العلم للملايين، ط10، 2002م)، 7/ 32؛ كردي، **أدب الرحل**، ص83.

(10) كردي، **أدب الرحل**، ص83.

(11) الدباغ، محمد بن عبدالعزيز، **من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني**، (الدار البيضاء، مكتبة الأمة، ط1، 1413هـ/ 1992م)، ص149– 150.

(12) العبدري، **مقدمة الرحلة**، ص12، 28.

(13) الدباغ، **من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني**، ص148– 149.

(14) **الرحلة**، ص210.

(15) **الرحلة**، ص211.

(16) **الرحلة**، ص212.

(17) العبدري، **الرحلة**، ص212.

(18) ذكر ابن بطوطة أسماء أبواب الإسكندرية فقال: "ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر وليس يفتح إلا يوم الجمعة". انظر: ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت779هـ/ 1277م)، **تحفة = =النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، (دار الشرق العربي)؛ وقال الدكتور السيد: بأنه "كان ينفتح في سور الإسكندرية الاسلامي أربعة أبواب رئيسية هي: باب البحر، وباب الرشيد، وباب سدرة، وباب القرافة، ثم أضيف إلى هذه الأبواب الأربعة أبواب أخرى يغلب الظنّ أنها فتحت في سور الإسكندرية في العصر المملوكيّ، ابتداء من عصر السلطان الظاهر بيبرس. انظر: السالم، السيد عبدالعزيز، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي**، (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982م)، ص447.

(19) **الرحلة**، ص213.

(20) تحدّث المقريزي بإسهاب عن عامود السواري. انظر: المقريزي، أحمد بن علي، (ت845هـ/ 1441م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ)، 1/ 296– 301.

(21) **الرحلة**، ص213- 214.

(22) ابن بطوطة، **الرحلة**، 2/ 12.

(23) ابن بطوطة، **الرحلة**، 2/ 12.

(24) **الرحلة**، ص114.

(25) **الرحلة**، ص114.

(26) **الرحلة**، ص216-217.

(27) **الرحلة**، ص216-217.

(28) ابن حجر، أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ العسقلاني (ت852هـ/ 1449م)، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.)، 2/ 487.

(29) **الرحلة**، ص214- 215.

(30) السيسي، هشام عطية، **الأسر العلمية في الإسكندرية ودورها الثقافي خلال العصرين الأيوبي والمملوكي**، (اليمن، جامعة ذمار، 2020م)، ص65- 100.

(31) **الرحلة**، ص228.

(32) **الرحلة**، ص228- 245.

(33) الغَرّافي، نسبة إلى بلدة غَرّاف، بين واسط والبصرة بالعراق. انظر: الحموي، ياقوت (ت636هـ/ 1228م)، **معجم البلدان**، (بيروت، 1397هـ/ 1977م)، 4/ 190.

(34) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/ 1362م)، **الوافي بالوفيات**، (فسبادن، فرانز شتاينز، ط2، 1394م)، 7/ 142؛ المقريزي،**المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1411هـ/ 1981م)، 1/ 509.

(35) الذهبي، **معجم شيوخ الذهبي**، تحقيق: روحية السيوفي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1990م)، 2/ 12؛ الصفدي، **الوافي الوفيات**، 4/ 77.

(36) **الرحلة**، ص245- 266.

(37) **الرحلة**، ص228.

(38) **الرحلة**، ص228- 245.

(39) **الرحلة**، ص267- 271.

(40) **الرحلة**، ص266.

(41) على الرغم من أن العبدري لم يشرْ إلى الكتاتيب إلا أنه أشار إلى الطريقة المتبعة في تعليم الصبيان، فقال في هذا الصدد: "هل ضرب صبيان المكتب حدّ؟ فاختلفوا في تحديده وأجاب الفقيه أبو الطّاهر إسماعيل بن عوف الزّهريّ قال: "الضّرب للصّبيان كالغيث للنّبات".

(42) العبدري، **الرحلة**، ص214.

(43) العبدري، **الرحلة**، ص25.

(44) شرف الدين، شهيرة، "رصد الأثر البيئي لموقع أثري بهدف الارتقاء والتطوير الشامل"، **(مجلة التراث والتصميم**، طنطا، م4، ع19، 2024م)، ص77.

(45) السالم،**تاريخ الإسكندرية**، ص29.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت779هـ/ 1277م)،**تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار**، دار الشرق العربي.
- ابن حجر، أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ العسقلاني (ت852هـ/ 1449م)،**إنباء الغمر بأبناء العمر**،(بيروت، دار الكتب العلمية).
- الحموي، ياقوت (ت636هـ/ 1228م)،**معجم البلدان**، (بيروت، 1397هـ/ 1977م).
- خربوطلي، شكران وآخرون،"أدب الرحلة في العصر المملوكي (ابن بطوطة والبلوي أنموذجًا)"، (حلب،**مجلة بحوث جامعة حلب**، ع101، 2015م).
- الدباغ، محمد بن عبدالعزيز،**من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني**، (الدار البيضاء، مكتبة الأمة، ط1، 1413هـ/ 1992م).
- الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م)،**معجم شيوخ الذهبي**، تحقيق: روحية السيوفي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1990م).
- الزركلي، خير الدين محمود،**الأعلام**، (دار العلم للملايين، ط10، 2002م).
- السالم، السيد عبدالعزيز،**تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي**، (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982م).
- السيسي، هشام عطية،**الأسر العلمية في الإسكندرية ودورها الثقافي خلال العصرين الأيوبي والمملوكي**، (اليمن، جامعة ذمار، 2020م).
- شرف الدين، شهيرة،"رصد الأثر البيئي لموقع أثري، بهدف الارتقاء والتطوير الشامل"، (طنطا،**مجلة التراث والتصميم**، م4، ع19، 2024م).
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/ 1362م)،**الوافي بالوفيات**، (فسبادن، فرانز شتاينر، ط2، 1394م).
- القاسمي، محمد رضي الرحمان، "الرحلة وأدبها في اللغة العربية"، (**مجلة الداعي**، أبريل – يونيو، 2013م، ع6–7، س37) .
- ابن القاضي المكناسي، أحمد (ت1025هـ)،**جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس**، (الرباط، دار المنصورة، 1973م).
- كردي، علي إبراهيم،**أدب الرحل في المغرب والأندلس**، (دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013م).
- محمد بن عبدالعزيز الدباغ،**من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني**،(الدار البيضاء، 1992م).
- الفيومي، أحمد بن محمد (ت نحو 770هـ/ 1338م)،**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت، المكتبة العلمية).
- المقريزي، أحمد بن علي، (ت845هـ/ 1441م):

1- **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1411هـ/ 1981م).

2- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ).

- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ/ 1311م)، **لسان العرب**، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، (بيروت، دار صادر).
- النووي، يحيىَ بن شرف بن مري بن حسن الحزامي (ت676ه/ 1277م)،**تهذيب الأسماء واللغات**، (بيروت، دار الفكر،1996م).